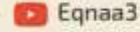




فناة إفناع

لترسيخ اليقين
ورد الشبهات بالبراهين



ترسيخ لليقين ورد الشبهات بالبراهين

تحت اشراف د / أبي الفداء حسام بن مسعود حفظه الله

مركز البحوث والدراسات الإسلامية في الكويت

الكويت - شارع الفهد - حي الفهد





إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله،
أما بعد، فقد جاءني سؤال من أحد الإخوة وفقهم الله تعالى، رأيته يتناول قضايا فيها شيء من الدقة فيما يتعلق بالكوزمولوجيا التوسعية أو الانتفاخية **Expansion Cosmology** وما يتعلق بأصحابها من عقائد بشأن قدم العالم أو تسلسل الأسباب الطبيعية وما سبق منا من كلام في هذه المسألة، فرأينا أن نعمم النفع بتناوله بشيء من البسط في مقطع مستقل، والله الموفق للرشاد.
قال الأخ السائل وفقه الله، طارحا سؤاله في ست نقاط:

١- ذكرتم، نفع الله بكم، أن نظرية الانفجار الكبير قد وضعها هؤلاء لما طردوا النظريات التي تحاول شرح بعض ظواهر الكون كما نراها الآن، كالجاذبية مثلا-، في الماضي، استنادا منهم إلى افتراض أن الأسباب الطبيعية نفسها أزلية لا أول لها لكنهم مع ذلك يُصرّحون، فيما عرفت، بفشل هذه النظريات نفسها عند تطبيقها على ما يسمونه بتفرد الانفجار الكبير فلماذا لم يأخذوا هذا دليلا على عدم صحة افتراض أزلية هذه الأسباب؟ أم أنهم حاولوا حلّ الإشكال بافتراض النقص في نظرياتهم لا في عين فرضية أزلية السبب الطبيعي؟

٢- قد عرفت أيضا على حد علمي أن هؤلاء يتساءلون عن أمور جوهرية في نظرياتهم الطبيعية نفسها، وأنهم يطمحون إلى معرفة سبب كون القوانين الطبيعية على هذه الصورة التي يعرفونها، فلماذا يسعون إلى ذلك مع أنهم يؤمنون بأزلية السبب الطبيعي؟ ففيم يبحثون إذن؟ أم أن هناك خلل عندي أنا في فهم القضية؟

٣- هل صحّ أن بعضهم عند كلامه على نظرية الانفجار الكبير قد ذكر وجود الخالق؟ كنت أظن أن بعضهم قد كتب في أحد مصنفاته {من الصعب معرفة مصدر الانفجار لكن الصورة لا تكتمل بدونه -يقصد الخالق-} أو عبارة نحوها، قد قرأت هذا لكنني نسيت المصدر، فهل اطلعتم على ذلك؟ وما رأيكم فيه؟

٤- بعض أهل الإسلام يفسرون آية "أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا" بمعنى نظرية الانفجار الكبير، ويصفون هذا بالإعجاز العلمي، فماذا ينبغي علينا تجاه هذا الأمر؟



٥- ذكرتم في كلامكم معنى الزمان المطلق عند الأشاعرة كالغزالي، فما المعنى الصحيح للزمان بما يوافق اعتقاد أهل السنة؟

٦- فهمتُ من كلامكم أنَّ القدم النوعي وتسلسل الأحداث هما شيء واحد، فهل هذا الفهم صحيح؟ وبارك الله فيكم، وأسألُ الله تعالى أن يوفقكم وأن يجعل عملكم خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان حسناتكم

وأنتم فجزاكم الله خيراً.

أما السؤال الأول وهو قولك:

ذكرتم، نفع الله بكم، أنَّ نظرية الانفجار الكبير قد وضعها هؤلاء لما طردوا النظريات التي تحاول شرح بعض ظواهر الكون كما نراها الآن، كالجاذبية مثلاً-، في الماضي، استناداً منهم إلى افتراض أنَّ الأسباب الطبيعية نفسها أزلية لا أول لها لكنهم مع ذلك يُصرِّحون، فيما عرفت، بفشل هذه النظريات نفسها عند تطبيقها على ما يسمونه بتفرد الانفجار الكبير، فلماذا لم يأخذوا هذا دليلاً على عدم صحة افتراض أزلية هذه الأسباب؟ أم أنهم حاولوا حلَّ الإشكال بافتراض النقص في نظرياتهم لا في عين فرضية أزلية السبب الطبيعي؟

فقول ينبغي أن يكون معلوماً الفرق بين قول القائل إن القوانين الطبيعية الحالية Current Laws of Physics أزلية لا بداية لجريائها، وبين القول بأن نوع الأسباب الطبيعية Natural Causes لا يزال تتسلسل أفرادها من الأزل بلا بداية.. فالقول الثاني لا يقتضي الأول، وهذا هو حرف المسألة.

فمن المتصور عند الطبيعيين الحكم على قانون طبيعي ما بأنه بدأ بعد أن لم يكن، أو تحول عن حال سابقة .. بل ويتصور عندهم الحكم بذلك على جميع القوانين الفيزائية التي يقولون بها حالياً. ولكن لا يتصور عندهم القول بأن شيئاً من تلك القوانين (سواء في ابتدائه إن كان له ابتداء، أو في تحوله إن قدروا تحوله، أو في بقائه على ما هو عليه) يرجع إلى سبب خارج عن النوع الطبيعي غير قابل للإدراج تحته! ولهذا تراهم يصرون على البحث عن

يعني حتى تتضح المسألة، دعنا نسلم تترلا بصحة دعوى التوسع المزعوم، وأن المشاهدات الحالية تدل عليه دلالة يمكن ترجيحها على ما سواها. فالسؤال الذي يطراً حينئذ عند الطبيعيين ولا بد لهم من تكلف جوابه هو السؤال: متى بدأ ذلك التوسع وكيف ولماذا؟؟ لماذا أقول لا بد لهم من تكلف جوابه؟ لأنهم معتقدون بتسلسل الأسباب الطبيعية بلا ابتداء! فلما كان التصور السابق هو اطراد حال العالم في الماضي وهيئته ونظامه على ما هو عليه الآن، من الأزل بلا ابتداء، فقد أصبح الواجب الآن في دينهم أن يحدثوا تصورا تفصيليا لماضي العالم وما كان عليه مع اعتبار ذلك التوسع المزعوم، وأن يتصوروا بدايته وكيفيته على شرط أن يكون جميع ذلك عندهم جاريا على نفس الطريقة الطبيعية التي بها يتوصلون إلى كل زعم ودعوى بشأن تاريخ العالم وصفته ونظامه. فإذا كانت العقيدة هي أن السبب الطبيعي الماضي لا بد وأنه قد سبقه سبب طبيعي أيضا، وهكذا بلا ابتداء، فكيف تتوصل - بناء على

4



تلك المسلمة الطبيعية الكلية - إلى تصور ما كان عليه ذلك التوسع في الماضي السحيق، وكيف ننتهي إلى الترجيح في ذلك؟ ما دمنا نتكلم عن انتفاخ مطرد من الماضي، فلا بد من أحد طريقين لا ثالث لهما حتى يصبح المنظر الطبيعي متحصلا على نظام اعتقادي طبيعي كامل بشأن أصل العالم لا محل فيه ولا مدخل لسبب خارج عن نوع الأسباب الطبيعية (وهو المطلوب النهائي من هذا النوع من التنظير على أي حال: أعني نوع التنظير الكوزمولوجي):

- إما القول بأن الانتفاخ هذا بدأ في الماضي في نقطة ما، على جرم ما أو موجود طبيعي معين، لسبب طبيعي معين، فحوله من حال كان عليها، كانت خاضعة لقوانين معينة، إلى حال التوسع والانتفاخ التي وصلت بنا أخيرا، مع ما يحكمها من قوانين إلى ما نراه الآن من حال العالم، وهذا ما عليه كل من يثبت فردية Singularity في الماضي، ويحاول تصور سببها الطبيعي والحال التي كان عليها العالم قبل ظهور تلك الفردية وقبل انتفاخها.

- وإما القول بأنه لم يكن في الماضي نقطة ما، يمكن الحكم عليها بأنها بداية زمانية Temporal Beginning أصلا، وإذن فلا سبب Cause يرجى لتفسير الانتفاخ المزعوم، لا طبيعي ولا غيره، لأنه إن لم يوجد مفهوم للزمان لم يتصور أي مفهوم للسببية. وهذا هو اختيار هارتل وهو كينغ في أنموذجهما المسمى بالكون عديم الحافة Boundless Universe، وهي فلسفة متناقضة رد عليها "ويليام لين كريغ" في كتبه برد لا يقل تناقضا، ألا وهو الزعم بسببية لازمانية Tenseless / Atemporal Causation، وهذه بدعة خطيرة يأتي بسط الكلام عليها في محاضرات لاحقة إن شاء الله تعالى.

المهم أن كلا الفريقين متفقان على حصر باب السببية Causation في نوع السبب الطبيعي! فسواء كان لقانون الجاذبية - مثلا - بداية ما في الماضي، فلا بد أن كان سبب ابتدائها أيا ما كان، سببا طبيعيا Natural Cause، يمكن من حيث المبدأ التوصل إلى افتراضه وتصوره من طريقهم، بأما طريقة من طرق القياس والطرء القياسي في الماضي. أما أن يقال إن سبب الفردية المزعومة كان سببا خارجا عن نوع الأسباب الطبيعية (والفعل



الإلهي أو Divine Action على اصطلاح المعاصرين، لا يقال له "سبب طبيعي" بطبيعة الحال، فهذا عندهم يهدم مبدأ الطرد السبي في الماضي الذي به توصلوا إلى القول بتلك الفردية نفسها أو بأي شيء أيا ما كان تصورهم له في نماذجهم الكوزمولوجية كيفما كانت!

يعني ما المانع لو صح هذا التوقيف والقطع المفاجئ للاطراد السبي الطبيعي المطلق في الزمان الذي اعتمده القوم في منهجهم وطريقتهم، من أن يقال إن التوسع الزعوم هذا إنما بدأ قبل مئة ألف سنة فقط مثلاً! أو حتى قبل بداية التاريخ المدون Documented History مباشرة، يعني قبل عشرة آلاف سنة فقط أو نحو ذلك، وإنما خلق الباربي العالم كله على حالة معينة قبل عشرة آلاف سنة، بلا فردية ولا غيره، ولكن على هيئة أصغر حجماً من هيئة العالم التي يتبناها الفلكيون اليوم، ثم أجرى فيه القوانين التي يرونها الآن بما في ذلك ما يزعمونه من تمدده المطرد وانتفاخه، حتى بلغت اليوم ما هي عليه؟ دعونا من مسألة التوفيق بين النظريات في تصور الامتداد الزماني الماضي وطوله، فإن المبدأ واحد في جميع تلك النظريات على أي حال! فما دمنا نتكلم في مسألة ليس لنا كبشر أي مستند استقرائي في عادتنا للفصل والترجيح فيها من طريقنا، فمن المتصور ولا شك أن يكون أقدم الأسباب الطبيعية في هذا العالم على الإطلاق راجعاً إلى ما لا يجاوز المئة قرن مضت، ولا يمتنع - قطعاً - إحداث نظريات تتوافق كلها على هذا التصور الزماني الضيق، وإن كنت لا أقول به ولا بغيره، لأن الأمر كله غيب زماني مطلق! وأما قبل ذلك الحادث، فأسباب من نوع لا تتصوره ولا دخول له في نوع السبب الطبيعي! فهل يقبل الفيلسوف الطبيعي هذا المعنى؟؟ أبداً! لأنه لو قبله، لهدم على نفسه مبدأ الطرد الماضي للأسباب الطبيعية Absolute Uniformity فيما قبل التاريخ المدون، وإذن لقطع على نفسه الطريق لتحصيل أي معرفة على الإطلاق (أي فيما يزعم هو في نظريته المعرفية أنه معرفة) في مسألة تاريخ الكون وماضيه السحيق وبداية العالم، وإذن لبقى لدى أهل الملل المتألهة المنسوبة إلى رب العالمين، درجة ومترلة معرفية على جميع الطبيعيين تلجئهم إلهاء وتضطربهم اضطراباً لأن يتبعوهم ويقبلوا منهم جوابهم لتلك الأسئلة الوجودية الكبرى، وهو ما لا يطيقونه ولا يتصورونه لأنفسهم! لهذا وجب أن يكون نوع الأسباب الطبيعية مطرداً في الماضي بلا بداية، حتى يتمكن الفيلسوف الطبيعي من ادعاء النظريات الكوزمولوجية أشكالاً وألواناً فيما كان عليه حال العالم في الماضي السحيق، فإذا سئل عما



كان عليه قبل ذلك، قال: أمهلوني آتيكم بنظرية جديدة أو أنموذج كوني جديد يُجيب عن هذا السؤال كما أجبته بغيره عن غيره، وهكذا!

فالذي ذهب منهم إلى القول بأن النظرية الحالية التي قبلها وارتضاها لنفسه في التصور الكوزمولوجي لعملية التوسع المزعومة هذه، لا تفني بالغرض في بيان كيف بدأت تلك الفردية المزعومة، فهذا لا يقول ولا يمكن أن يقول بامتناع التنظير الطبيعي من حيث المبدأ في تلك البابة، إلا إن كان قائلاً بما يمنعه من افتراض الفردية نفسها كنقطة في الماضي، لأنه لا يقول "بماضي" أصلاً ينتهي إليه بأنموذجه كما ذهب إليه هو كينغ وهارتل! فهو حينئذ يزعم أن أنموذجه الذي ينفي الفردية، يفي بالمطلوب في تفسير نشأة الكون تفسيراً طبيعياً سابغاً لا يلجئ للقول بسبب فائق للطبيعة، وهو ما لأجله أهمل هو كينغ حياته البائسة بالحكم الجازم بأن الكون ما كان يحتاج إلى إله ليخلقه لأنه على سفسطته لم تكن له بداية سببية في الماضي أصلاً **Temporal Becoming**! أما إن كان ممن يشتون الفردية المزعومة، فلا بد أن يكون لديه افتراض لزمان تخيلي فيما قبلها، كما في أنموذج روجر بنروز مثلاً، حتى يصح له قياس نقطة بداية الانتفاخ المزعومة تلك على ما يزعمونه من أحوال فردية زمكانية أو كوانطية تتناولها نظرياتهم الحالية بالتوصيف الرياضي. وقد يكون ممن يمددون الزمان النسباني في الماضي السحيق دون القول بفردية بدأ منها التمدد والزمان نفسه، كما في أنموذج شون كارول.

ولا شك أن معادلات أينشتاين لا تسمح بتمديدتها إلى ما قبل النقطة المزعومة التي يفترض أنها لم يكن قبلها زمكان أصلاً، لأن موضوعها هو الزمكان المزعوم نفسه (العلاقة بين انحناؤه وبين توزيع المادة فيه)! وهو ما يعني خروج ما قبل تلك النقطة المزعومة عن إطار التنظير النسباني **Relativistic Theorization** وليس عن إطار مبدأ التنظير الطبيعي نفسه **Scientific Theorization**، وانتبه لهذا الفرق فإنه مهم ودقيق! فصحيح إن نظرية النسبية العامة لا تطال ما قبل تلك الفردية المزعومة فلا تنفع في تفسير ذلك أو تصور كيفية نشأتها وما كان عليه العالم قبلها، لكن هذا لم يمنعهم من التماس نظريات أخرى وتصورات أخرى وما كان ليمنعهم، لأنهم لم يحولهم شيء عن أصل دينهم الدهري، ألا وهو القول بتسلسل الأسباب الطبيعية! ولهذا تجد أكثر القائلين بنماذج كوزمولوجية تتصور ما كان قبل تلك الفردية، يتعلقون غالباً بنظريات الجاذبية الكمومية



Quantum Gravitation وميكانيكا الكم عموماً، لأنهم وإن كانوا قد عجزوا عن تمديد معادلة النسبية العامة إلى ما قبل تلك النقطة، فلا شيء يمنعهم من تمديد غيرها من المعادلات التي بين أيديهم في نفس الأمر، ولا من افتراض معادلات جديدة تقوم مقام معادلات النسبية في ذلك، أو تدعي انقلابها إلى حال أخرى يمكن افتراضها ببعض التعديلات، كما في نماذج الكون المتقلب **Cyclic Model / Oscillating Universe** ونظرية الانسحاق الكبير ونحوها.

والحاصل أن أكثرهم لم ير أصلاً مشكلة حتى يحاول حلها بافتراض أزلية السبب الطبيعي! كيف وأزلية السبب الطبيعي هي المسلمة التي ينطلقون منها جميعاً في جميع ما يفترضون من نظريات وتصورات؟ وإنما المشكلة تظهر عند من يقولون بنظرية معينة أو بأمثلة معينة، لا عند من يقولون بغيره، ممن جميعهم ينطلقون من نفس المسلمات الوجودية الدهرية ولا فرق!

ولعل في هذا أيضاً جواباً لسؤالك الثاني، وهو قولك:

قد عرفتُ أيضاً على حد علمي أن هؤلاء يتساءلون عن أمور جوهرية في نظرياتهم الطبيعية نفسها، وأنهم يطمحون إلى معرفة سبب كون القوانين الطبيعية على هذه الصورة التي يعرفونها، فلماذا يسعون إلى ذلك مع أنهم يؤمنون بأزلية السبب الطبيعي؟ ففيم يبحثون إذن؟ أم أن هناك حلاً عندي أنا في فهم القضية؟

فكما تقدم، فهم لا يرون إشكالا في ادعاء أن كون القانون الطبيعي الحالي على ما هو عليه، يرجع إلى سبب طبيعي معين في الماضي جعله على ما هو عليه! فموضوع البحث ليس فيما إذا كان هذا السبب طبيعياً أو غيره، وإنما في كيفية التوصل لافتراض ذلك السبب على نحو يتوافق أو يتناسق نظرياً مع ما انتهوا إليه من نماذج كوزمولوجية في نشأة العالم. ذلك أن الطبيعيين يؤسسون عقائدهم ونظرياتهم بناء على مبدأ التناسق الداخلي **Coherence**. بمعنى أنه لا تقبل نظرية جديدة حتى تكون متناسقة مع غيرها من النظريات، اللهم إلا إن رأوا ما يدعوهم للتحويل إلى تصور ميتافيزيقي جديد (بارادائم) كما صنع أينشتاين بإحداثه تعريفات جديدة للزمان والمكان تخالف ما كان عليه نيوتن. فالعقبة الوحيدة التي تواجههم من آن لآخر، هي كيفية الجمع بين هذه النظرية



(الجارية على مبدأ الاستمرارية المطلقة للأسباب الطبيعية في الماضي) ونظرية أخرى ذات صلة (تجري أيضا على مبدأ الاستمرارية نفسه)، بصورة تتناسق رياضيا ولا يحصل منها تناقض داخلي! وأما المشاهدات فلا إشكال إطلاقا في تأويلها كيفما كانت على ما يوافق هذه النظرية أو تلك كما هو معلوم، طالما كان التأويل متناسقا - أيضا - مع النظريات الأخرى ذات الصلة! هذا هو المبدأ في الترجيح كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى عند الكلام في محاضراتنا في مبادئ الطبيعيين في الترجيح بين النظريات.

وأما سؤالك الثالث، وهو قولك:

هل صحَّ أن بعضهم عند كلامه على نظرية الانفجار الكبير قد ذكر وجود الخالق؟ كنت أظن أن بعضهم قد كتب في أحد مصنفاته {من الصعب معرفة مصدر الانفجار لكن الصورة لا تكتمل بدونه -يقصد الخالق-} أو عبارة نحوها، قد قرأت هذا لكنني نسيت المصدر، فهل اطلعت على ذلك؟ وما رأيكم فيه؟

فالجواب إنه لم يقل بمسألة الخالق ووجوده إلا من كان منهم منتسبا إلى النصرانية خاصة أو إلى دين من الأديان التي تثبت الباري عامة. ومنهم ليمتد نفسه، الذي كان هو أول من استعمل معادلات النسبية العامة في وضع فرضية التوسع المزعومة تلك تاريخيا. ولكنه ومع كونه راهبا كاثولوكيا إلا أنه لم يكن يحب استعمال تلك النظرية التي فرضها في إثبات وجود الصانع أو حتى في الكلام على أفعاله في العالم، وكانت له مراسلة مع بابا الفاتيكان المعاصر له ينبهه فيها إلى عدم استعمال تلك النظرية في هذا الباب، لأنه كان يرى أن باب التنظير الطبيعي في هذه الأمور سينغلق بمجرد فتح الباب للكلام على الصانع وأفعاله في تلك النظريات! فالرجل كان يعتنق النظرية المعرفية الطبيعية في اعتماده نوع التنظير الطبيعي مصدرا لتلقي المعرفة بالغيب في قضية النشأة، وإن كان يثبت صانعا بالغيب! فإن سألته ما الذي فعله ذلك الصانع إذن وكيف تجمع بين ذلك وبين ما تجده في كتابك المقدس في سفر التكوين وغيره، سلك في ذلك مسالك اللاهوتيين الطبيعيين في التأويل والتحريف والتعطيل لا محالة! المهم أنه على مسلمات القوم الوجودية التي بها يضعون ما يضعون من نماذج ونظريات طبيعية في مسألة النشأة هذه، فلا شيء يضطرهم ولا يجوهم للقول بصانع في الغيب ولا بسبب "غير طبيعي" أصلا! وإنما المسألة مسألة ذوق!

من كان يريد إثبات صانع بالغيب، تفنن في ذلك وتفلسف فيه ليوافق ذوقه الديني لا أكثر، وإلا فالنظريات تكفي صاحبها من حيث التفسير الوجودي **Ontological Explanation**، جريا على مسلمات الدين



الطبيعي كما ذكرنا! ^٢ ولهذا لا يزال القوم يتهمون خصومهم بمسألة "إله الفجوات" هذه، والخصوم لا يفهمون وجه لحوق تلك التهمة بهم! فالمقصود بالفجوات، أن الطبيعيين لا تزال بطبيعة الحال لديهم بعض المواضع لم يصلوا فيها إلى اتفاق أو إلى تنظير مقبول أكاديميا في تغطيتها بنوع التفسير الطبيعي! فإذا جاء اللاهوتيون ومن شاكلهم ليقولوا: أنتم تعجزون عن تفسيرها لأن الإله هو تفسيرها، فهم بذلك يدخلون الفعل الإلهي تحكما في أمور قد سبق منهم قبول التنظير الطبيعي الدهري في نظيرها! ويزعمون عجز الطبيعيين عن التفسير في قضايا قد سبق منهم قبول التفسير الطبيعي في نظيرها!

فأنت إذا كنت قد قبلت القول بالانفجار الكبير بناء على تنظير طبيعي يجري على مسلمات الطبيعيين الوجودية، فالمتعين عليك حتى لا تتناقض منهجيا، أن تقول: دعونا ننتظر حتى نرى ما يأتي به الطبيعيون من نظريات جديدة في هذه المسألة كذلك، لنقبله كما قبلنا غيره إن اتفق القوم على قبوله أكاديميا كما اتفقوا على قبول غيره، لا أن تهجم على المسألة وتقول: أنتم ما عجزتم عن التفسير إلا لأن المسألة لا تفسير لها إلا الفعل الإلهي!! ليس في الغيبيات ما يمتنع - من حيث المبدأ - ضرب الأساطير الطبيعية في تفسيره، فإما أن تقبلوا مبدأ التنظير في تلك الغيبيات، وإذن فلا معنى للحكم بأن عجز الطبيعيين عن التوصل إلى نظرية متناسقة داخليا وخارجيا في تفسير هذه المسألة أو تلك إنما سببه كونها ليس لها سبب طبيعي أصلا، وإما أن ترفضوا ذلك المبدأ كلية (أعني مبدأ احترام الغيب المطلق بالفروض والنظريات الطبيعية)، وإذن تردوا عليهم زبالتهم تلك في هذه الباب بالكلية، وتقولوا لا علم لنا في هذا إلا ما جاء به السمع، وهذا هو المتعين على المسلمين!

فالقول بأن الصورة لا تكتمل بدون خالق، هو قول من ضعف فهمه لحقيقة الدين الطبيعي ومسلماته ومنطلقات الطبيعيين في التنظير الكوزمولوجي، وغلبه الهوى (أعني الهوى التوفيق بين الكوزمولوجيا المعتمدة أكاديميا وبين اعتقاده في وجود الصانع) وهؤلاء موجودون في أوساط الفيزيائيين الغربيين والفلاسفة الأكاديميين ولا شك، ولهم مصنفات وكتب، ومنهم لاهوتيون مرموقون عالميا، أمثال ويليام لين كريغ وألفين بلانتينغا وغيرهما.

أما سؤالك الرابع، وهو قولك:

بعض أهل الإسلام يفسرون آية "أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا" ^٣ بمعنى نظرية الانفجار الكبير، ويصفون هذا بالإعجاز العلمي، فماذا ينبغي علينا تجاه هذا الأمر؟

^٢ ونقول تكفيهم على مسلماتهم، أي بالنظر إلى أصول دينهم الدهري، فهم على دينهم، لا موجود إلا الطبيعة، ولا سبب إلا السبب الطبيعي.



فالجواب أننا قد تناولنا هذا التأويل البدعي بالبسط والتفصيل في آله الموحدين وغيره، كما أطلت النفس عليه كذلك وعلى منهج الإعجازين وجهميتهم الطبيعية عامة والكوزمولوجية خاصة في الكتاب الجديد، عجل الله صدوره، فأرجو مراجعة ذلك.

وأما السؤال الخامس، وهو قولك:

ذكرتم في كلامكم معنى الزمان المطلق عند الأشاعرة كالغزالي، فما المعنى الصحيح للزمان بما يوافق اعتقاد أهل السنة؟

فأقول إن هذا الباب يطول الكلام فيه، وقد بسطنا القول عليه في الكتاب الجديد عجل الله صدوره، ولكن جوابك — فيما نرجو — بما يسعنا إيجازه في حدود ما يسمح به هذا المقام، هو أن يقال إن الزمان معنى ذهني، يطلق ويراد به وصف ترتيب حدوث الحوادث أو توقيتها بالقياس على نظام ثابت للحوادث التكرارية، كتوقيتنا للحوادث الواقعة تحت عادتنا بالقياس على نظام طلوع الشمس وغروبها، فنقدر المدد والمواقيت بذلك.^٣ فكل ما جاز أن يقال في اللغة إنه حادث، أي شيء قد حدث، فمعاني الزمان داخله عليه ضرورة عند وصفه، فمجرد اللفظة نفسها (قولنا : قد حدث) فيها تقرير للزمان الماضي كما ترى، وهو ما يوجب بالعقل تقدم زمان عليه كان فيه

^٣ وقد استعمل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في مصنفاته لفظه الزمان على معنيين، هذا الذي قررناه، ومعنى آخر وهو جريان الشمس على نظامها اليومي بما يقدر الناس عليه زامنهم، وسماه بالزمان المخلوق. فجريان النظام الذي عليه يقاس تقدير الزمان نفسه، واستمرار حوادث العالم في الجريان على هذا النظام، هو معنى من معاني الزمان عنده، وهو على هذا الاعتبار مخلوق من مخلوقات الله تعالى. قال رحمه الله: "فَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ (بِإِدْيِ الْأَمْرِ أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ الزَّمانُ، فَإِنَّهُ قَدْ أُخْبِرَ أَنَّهُ يُقَلَّبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالزَّمانُ هُوَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ؛ فَدَلَّ نَفْسُ الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ يُقَلَّبُ الزَّمانُ وَيُصَرَّفُهُ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَآ بَرَقَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقَلَّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) وقد أخبر سبحانه بخلقه الزمان في غير موضع كقوله: (وجعل الظلمات والنور) وقوله: (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) وقوله: (وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) وقوله: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار). وغير ذلك من النصوص التي تبين أنه خالق الزمان ... اهـ. "مجموع الفتاوى" (٢/ ٤٩١-٤٩٢).



غير حادث، أي لم يكن ثم كان. وهذا كله يوجه معنى الحدوث نفسه بالضرورة. فعندما يقال إن معاني الزمانية لا تنطلق إلا على حوادث هذا العالم وحسب، فهذا تحكم ميتافيزيقي باطل، يرجع إلى تعلق صاحبه بنظرية ميتافيزيقية تقصر مفهوم الزمان في إطار جريان حوادث هذا العالم وحسب! كتعريف أرسطو مثلا للزمان بأنه التغير، وتعريفه التغير بأنه تقلب الصور على الهيولى، وتعريف المتكلمين التغير بأنه تقلب الأعراض على الجواهر! هذا هو مفهوم الحدوث عندهم، الذي فيه حصروا معنى كلمة حدوث نفسها بالحد الكلامي، وكذلك التغير! ولكن الصواب والحق أن يقال إن معاني الزمانية تطال كل ما يصح في اللغة، وأكرر في اللغة، أن يوصف بأنه حدث أو بأنه يحدث! وليس ذلك مقصورا على حوادث هذا العالم، أيا ما كانت حقيقتها! فالله تعالى يوم وقعت في نفسه مشيئة خلق العالم، مثلا، كان ذلك حدوثا بالمعنى اللغوي، إذ لم تكن موجودة ثم وجدت! فإذا كان ذلك كذلك، فهي كما ترى تجري عليها معاني الزمانية بالضرورة، إذ كانت في الماضي قبل الخلق، وكان قبلها زمان لم تكن موجودة فيه، أي لم تكن قد حصلت لدى الرب سبحانه تلك المشيئة بعد! وهكذا! وإذا كنا نؤمن بأن الله تعالى كان من الأزلى، أي بأنه الأول الذي ليس قبله شيء، فنحن كذلك نؤمن ضرورة بأن الله تعالى كان ولم يزل من الأزلى فعلا لما يريد! يفعل الفعل بعد الفعل، ويخلق الشيء بعد الشيء، وهذا بمجرد أعمال لمعاني الزمانية ولا شك! فلا يجوز أن يقال إنه ليس "قبل بداية العالم" قبل كما تقوله الأشاعرة، ولهذا القول لوازم لا يتسع المقام لبسط الكلام عليها، والله الهادي للرشاد.

أما سؤالك السادس، وهو قولك:

فهمتُ من كلامكم أنَّ القدم النوعي وتسلسل الأحداث هما شيء واحد، فهل هذا الفهم صحيح؟

فجوابك مداره على تحرير المقصود بالقدم النوعي. فإن كان المراد بما قدم نوع الحوادث، فهو بعينه القول بتسلسل الحوادث بلا أول. فالله تعالى لم يزل يخلق العالم بعد العالم، فتتجدد الآحاد مع قدم النوع، أي لا نقول إن الله عالما أول لم يخلق عالما قبله! ولم يزل يتكلم سبحانه دون أن يكون له كلمة أولى لا كلام قبلها، فيقال إن فعل الكلام قدم النوع حادث الآحاد! وهكذا في جميع الأفعال الإلهية، والله أعلم.

أرجو ألا يكون الإيجاز قد أدخل بالمطلوب، والله الموفق للصواب، والحمد لله أولا وآخرا



لترسيخ اليقين
ورد الشبهات بالبراهين

فناة إفتناع

أخوك

أبو الفداء ابن مسعود

غفر الله له ولوالديه والمسلمين

